

العامل العربي: هل استفد كامل عجزه!؟



08 أغسطس 2019 - 10:50

عبد المجيد سويلم

هناك ما يشبه الإجماع أن الحالة العربية لم تكن بهذه الدرجة من الهوان والعجز والفشل كما هي اليوم.

وهناك ما يشبه نفس هذا الإجماع أن تشرذم الحالة العربية وانقسامها وتصدها في أسوأ حالها منذ عشرات العقود، بل هناك من يرى أن الحالة العربية لم تكن بهذا السوء منذ دخول هولاءكو إلى بغداد وحتى يومنا هذا.

هذه الأطروحة لها ما يسندها في الواقع القائم، من المحيط إلى الخليج، وهي أطروحة معللة بحالة الارتهاان التام، وبالموقف من القضية الفلسطينية، وخصوصاً لجهة تقبل وقبول أن لا تعود إسرائيل هي العدو القومي للأمة، وكذلك لجهة الاستعداد التام والجاهزية الكاملة لتغيير كامل خريطة الأولويات وسلمها، إضافة طبعاً إلى «شراء» التبعية وبأسعار عالية ربما وصل ويصل إلى إهدار خطير بحقوق الأجيال القادمة.

وهناك من المؤشرات ما ينطوي على مفارقات مضحكة، وأخرى مثيرة للشفقة والأسى، وما تبعث على أشد أنواع الشعور بالمرارة والاحباط.

وعندما تكون نسب الأمية والفقر بالمعدلات التي تفوق تلك النسب في أفقر بلدان العالم في آسيا وأفريقيا، وعندما تكون نسبة القراءة والكتب المترجمة والبحث العلمي بمعدلات تدعو إلى الخجل، والشعور بالسخط واليأس، وعندما تنتشر في كل عام أسلحة بما يفوق أي موازنات تصرفها البلدان الصاعدة، والتي باتت مرشحة للانضمام إلى مصاف البلدان الكبرى، وعندما تصرف البلدان العربية على «الأمن»، عشرات (وهناك من يعتقد أن الأمر يتعلق بالمئات) أضعاف ما تصرفه على الثقافة أو الزراعة أو الصحة أو التعليم، عندما تصل الأمور إلى هذه الوقائع فإن أحداً منا لا يملك القدرة على «دحض» أو تفنيد هذه الأطروحة حول هوان الأمة، بل من الصعب معارضة هذه الأطروحة إن لم نقل تأييدها والترويج لها.

وهناك طبعاً من الحقائق والوثائق، ومن المعطيات والبيانات، ومن الوقائع التي تتكرر في الواقع العربي، بما لا يستطيع أحد الجدل حولها أو نفي أهميتها، وخطورة مدلولاتها، فيما ترمز إليه وبما تؤسس له أيضاً.

إذاً، المؤشرات كبيرة وحقيقية، سياسية واقتصادية، اجتماعية وثقافية.

وفي التفاصيل الأمور أخطر من هذه الصورة.

فعندما يتعلق الأمر بالعدالة، وبتوزيع الثروات الوطنية، وعندما يتعلق الأمر أيضاً، بالحرية وشرعيات النظام السياسي، وكافة قضايا حقوق الإنسان فالمشهد مرعب وقاتم ومظلم، وظالم إلى أبعد الحدود.

المشكلة الكبرى أن الحالة العربية انتقلت في العقدين الأخيرين من الظلم إلى الظلامية، وتحولت الحالة العربية إلى مراحل غير مسبوقه من التوحش والعنف. وبدلاً من أن يشكل «الربيع العربي»، الفرصة التاريخية. كما كان الرجاء والتعويل. للتحول إلى الديمقراطية، ودخول عصر الحريات والشرعيات السياسية، جاء هذا «الربيع» ليكرس المزيد من الظلم والظلام، والمزيد من العنف والتوحش والإرهاب. أدت هذه الحالة إلى تراجع القيم السياسية للديمقراطية، والحرية والمشروعية، وتكرس في الواقع العربي اليوم البحث عن «بقاء النظام السياسي» وكأنه الهدف الأهم للشعوب وللأمة بكاملها.

الدمار الذي جاء به «الربيع» حجب الرؤية عن أن الشعوب العربية تتوق، أو بالأحرى ما زالت تتوق للحرية والديمقراطية، لأنها لم تتذوق هذا الطعم بعد، ولأن «الربيع العربي» قد حرّمها هذه الفرصة التاريخية.

خرجت تونس والمغرب والأردن ومصر سالمة من الدماء والحروب الداخلية، ولكن ليبيا واليمن والعراق دفعت ثمناً باهظاً، أما سورية فقد دفعت الثمن الأكبر حتى الآن. الحالة العربية اليوم هي:

. خروج أمن بئس كبير في مصر .

. خروج ما زال خطراً في العراق واليمن باهظ جداً .

. خروج مبدئي ولكن الخطر ما زال قوياً في سورية .

. لا مخرج للحالة في اليمن حتى الآن .

. احتمال خروج غير أمن حتى الآن في ليبيا .

. خروج أمن تم في تونس والمغرب والأردن .

. خروج أمن في السودان .

. خروج ما زال متردداً في الجزائر .

عندما يتم الخروج الأمن للحالة العربية من الآثار التدميرية لحرف وانحراف «الربيع العربي»، فإن الحالة العربية ستعود رويداً رويداً إلى الخروج من دائرة الهوان والارتهان ورهن حياة الإنسان العربي ومستقبله لاحتياجات النظام العربي الذي يحاول أن «يضحي» بكل شيء لشراء البقاء وعدم السقوط.

عندما تتعلم الشعوب العربية «درس» «الربيع العربي» وتحفظه جيداً ستتعلم الولوع إلى الديمقراطية والحرية والمشروعية السياسية، وحينها سنرى عصراً جديداً من استعادة الوعي الوطني، ومن الالتحام القومي، ومن البحث عن أولويات الأوطان والشعوب، وليس أولويات النظام السياسي. حينها سنعاد قراءة أطروحة الهوان العربي، وربما سنشهد معاً كم هي مزرية الحالة العربية، ولكن كم هي مرشحة أيضاً، في السنوات القادمة للخروج من دائرة الفشل والعجز إلى دائرة الفعل والتأثير والثورة على الذات في كل الميادين.

فلا يراهن أحد على بقاء الحال كما هو عليه، وكل محاولات ترامب وإسرائيل لتخليد حالة الارتهان والهوان العربية، هي مجرد أوام خادعة.

حالة العرب مزرية ولكن الشعوب العربية لن تتأخر كثيراً للخروج إلى النور وإلى الشمس وإلى الحرية.

ممنوع أن نياس، وممنوع أن نرى فلسطين وكأنها وحيدة في عالمنا العربي.

وممنوع أن نراهن على غير شعوب هذه المنطقة التي إن أتى دورها يوماً ستتغير كل المعادلات، وكل المقاييس، وكل المراهقات.

حالة العجز في طريقها إلى الاستنفاد.

والقادم هو دمار كبير على أصحاب مشروع الارتهان والهوان وإن غداً لناظره قريب.